خواطر فى رأس السنة

للأستاذ صديق شيبوب

النظام أساس العالم ، والتوقيت من الأسس التى يقوم عليها النظام . عرفه الإنسان منذ عصوره الأولى ، أى منذ لاحظ أن اليوم ليل ونهار ، وأن الأيام يتلو بعضها البعض الآخر متشابهة فى شكلها البارز ، متباينة طولاً وقصراً ، وبرداً وحراً . فإذا الأيام مجموعة فى فصول ، والفصول مقسمة إلى شهور ، والشهور مضمومة فى السنة . ولم يلبث التوقيت بالسنة أن استولى على الإنسان فى كل مرافقه

لكل إنسان على اختلاف عمله سنته الخاصة به . فللمزارع سنة ، وللتاجر سنة ، وللعامل سنة ، حتى الحكومة عندنا لها سنتها المالية الخاصة ؛ وللشمس سنة ، وللقمر سنة ، وللنجوم سنة . وكل واحدة من هذه السنين تختلف فى بدايتها ونهايتها عن السنين الأخرى ؛ فسنو الأجرام السماوية موقتة بدورانها ، وسنو طبقات الناس موقتة باختلاف الفصول وتأثيرها عليها

على أن الناس إذا اختلفت سنتهم الخاصة وفقاً لأعمالهم وأغراضهم فقد اعتنقوا كذلك سنة بعض الأجرام السماوية ، وخاصة الشمس والقمر . فجعل بعضهم السنة الشمسية ، كما جعل البعض الآخر من السنة القمرية ، عامة لكل الطوائف

هذا دليل من الأدلة على أن الإنسان يتطلع أبداً إلى السماء كأنها مهبط وحيه ومصدر هديه فى حياته . فسماء أبداً مرفوعتان إليها يتأمل فى قبتها الزرقاء الجميلة ، ويسر بانعكاس أضوائها ، وغرابة غيومها ، واختلاف ظلالها ، وتنوع ألوانها ، من فجر طالع ، إلى صبوح براق ، إلى غبوق داكن ، إلى شفق أحمر لامع إلى غسق أسود ، إلى ليل حالك ، ويعجب بخطوطها الزرقاء التى لا نهاية لها ، وأجرامها المتقدة كأنها أنوار تتلألأ فى بحر لا شاطئ له ، وبجوهراتها الساطعة التى لا توزن حجارتها بالمثقال . إنها ثروة عظيمة بعيدة المنال ، لا ينضب معينها ، ولا تزول بهجتها ، ولا تنحط قيمتها ، لا أول لها ولا آخر ؛ لا يستطيع الإنسان جمعها ، أو تناولها ، أو فقدها ، أو هبتها ، أو توريثها ، ولا يحول بينه وبينها غير الموت

ولكن الموت إذا نزل بالإنسان فإنه أضعف من أن ينزل بها وأن يزيل بهجتها ورواءها . إنه مثل النسر المحلق فى كبد السماء العاجز عن أن يحول دون تغريد البلابل

فالسماء رمز الأشياء التى لا تموت . هذه شمسها تمتلئ قبتها العميقة كأنها هاوية لا قرار تنتهى إليه ولا جبال ولا أرض تضمها ؛ هذه الشمس تشرق وتغرب على مناظر الطبيعة فى شتى الفصول تثبت حرارتها فى الأرض وما عليها . وهذا القمر حالم فى تنقله وتطوره ، وهذه النجوم تشع بريقاً كأنه خفق فؤاد مضطرم ...

لله أحلام الإنسان وآماله التى تلتقى عند هذه النجوم ! إنها محط أنظاره يسائلها عن ماضيه وحاضره ، ويرى فى بعضها مصدر تفاؤله وفى البعض الآخر مبعث تشاؤمه ، بينما هى فى أبراجها سامية تتابع سفرها الطويل اللانهائى لا تحير ولا تبدى ، ولعلها لا تراه ولا يخطر لها ببال ، ولا علاقة تربط بينها وبينه

على أنها مصدر راحة وطمأنينة فى سكونها الغريب . والسماء تتحدث إلى الإنسان بلغة عجيبة لا يستطيع التعبير بها أبلغ الألسنة . إن فى سكونها الرائع أعظم بلسم لشقاء القلوب . إنها قد تروع فكره حيناً ، ولكنها — مهما اختلفت اعتقادات الناس بها — تظل غذاء للنفوس ببريق ألوانها وسطوع شموسها وأقمارها ، وفكرة الاستقرار والسمو التى توحيهما إليها

ما أجمل الحياة لو قضيناها محدقين فى السماء !

* * *

يثير التحديق فى السماء فى نفس الإنسان فكرة أصله ومصيره ، من أين أتى وإلى أين يذهب ؟ هل الوجود والعدم سيان ! وإذا كان مصدره لا يثير اهتمامه لأن الماضى قد فات ، وهو فى ذمة التاريخ ، فما المستقبل ؟ كيف يمهد له أسباب الطمأنينة والسعادة ، وهما غايته التى ينشدها فى وجوده ، وهما قصده من مصيره ، والمصير من عالم الغيب ، ولكنه الرجاء يحدو الإنسان والآمال تبعث الشجاعة لقلبه ونفسه . والإنسان يقارن دائماً بين الماضى

والمستقبل ، متبرماً بالماضي منتظراً من المستقبل ما يعوض عليه ما فات . فكم سمعناه يقول : « لو كنت أدرى ... » و « إذا أتيح لى أن أعيش من جديد ... »

أما الرجل الحكيم فهو الذى يعرف كيف يوفق بين الماضى والمستقبل ، فكأنه يقضى حياته محاولاً استخلاص الحكمة مما يمر به من الحوادث ، والحكمة كلمة كبيرة تدل على صفاء العقل واللب . وما أحوج العالم اليوم إلى مثل هذا الصفاء !

إذا نظر الإنسان إلى الحقائق الواقعية وجد أن الصبر من أدق مظاهر الحكمة ، وله فوائد جمة تعود على صاحبه بالرضا . ومن فقده فقد خيرات وفيرة ، لأن الزمان لا يحترم غير الأعمال التى كان الصبر من أكبر العوامل التى ساهمت فيها .

كان الكردينال مازارين ، الوزير الفرنسى الكبير ، يقول : « أنا والزمان » ، وهو قول ينطبق على أفعال أعظم أمة فى هذا العصر . وقد وصل الوزير الفرنسى بالمبدأ الذى سار عليه إلى أعلى قمم المجد ، كما وصلت إليه الأمة البريطانية لأن الصبر معناه الرزانة والتعقل . لذلك نجد الصبر من المزايا التى يتحلى بها الإنسان فى سنى نضوجه وشيخوخته ، لأن فى الشباب حماساً يدفعه إلى تعجل الأمور ، وهو يتولى فى وقت واحد حل شتى المسائل فى أقصر مدة من الزمان

ومن غرائب الاضداد عجلة الشباب وصبر الشيوخ . يستعجل الشباب الأمور وهو يعرف أن أمامه متسعاً من الحياة يتيح له التريث فيها ويعالجها الشيخ فى أناة وصبر بينما يشعر أن ما بقى له من العمر قصير الأجل وأن الحياة تفلت من بين يديه وأن الموت قريب منه واقف له بالمرصاد

وهذه ظاهرة تصدم المنطق صدمة قوية ولكنه ينتقم لنفسه إذ يدلل على أن الأعمال المرتجلة هباء تذروها رياح الحياة ، وأن الزمان أداة قوية تطلب قسطها من الاحترام له ، وأنه سيد يجب إعطاءه ماله من حق

والطبيعة خير أستاذ للناس فى احترام الزمان لأنها ترضى بأحكامه وتخضع لقوانينه ، فلكل ظاهرة من ظواهرها مدتها المقررة وفصولها المعروفة . لأن الطبيعة قوية تصمد لتقلبات الزمان ولا تتأثر بها

حقاً إن الصبر من أبرز الدلائل على القوة ، وهو من أكثر مزاياها أناقة وطرافة

* * *

كم فى الحياة من اضداد تباعد بين المظهر والحقيقة !

يعيش الإنسان موزعاً بين المنافع التى يصبو إليها والغرائز التى تتنازع نفسه ، وهو يحاول أن يوفق بين هذه وتلك وأن يضفى عليها ثوباً تظهر فيه للناس من غير أن تقذى عيونهم

هناك عصور يستولى فيها الكذب على الإنسان فرداً ومجموعاً يعرف المجموع مواضع ضعفه فيخفيها ويظهر بمظهر القوة والغطرفة . ويعلم الفرد أنه حفنة من تراب فى مصدره ومصيره بينما تتمثل نفسه كبرياء وخيلاء . وتقبل كل طبقة من طبقات المجتمع على التعالى للوصول إلى ما فوقها : وطبقة العمال أقصى همها التركز لتوازى الطبقة الوسطى (البرجوازية) بينما هى تحتقر مبادئها وتقاليدها . وتحاول الطبقة الوسطى التسامى إلى الأرستقراطية بينما تتناول وسائلها وترفها ومظاهرها بنقد شديد

تنعت المرأة الرجل بالقوة وهى تعرف مكامن ضعفه ، ويصف الرجل المرأة بالجمال وهو يعرف أن فى الرجولة جمالاً لا تقاربه الأنوثة . وهكذا أضفى كل واحد من نوعى البشر على صاحبه نعوتاً لا يعتقد بصحتها . وقد خلق كل واحد لصاحبه مزايا ثم اطمأن إليها . ولعل أبرع هذا الخلق وأجله خلق الرجل للمرأة ، فقد بنى لها عرشاً وأجلسها عليه إلهة يطالع فى عينيها سعادته وغبطته ، ويستنزل من جناتها نعمته ولذته . والغريب فى هذا أنه صادق فى عقيدته التى اختلقها ، مغرور بكذبه الذى أجراه ، وأن غبطته فى أن يفتر بهما

ولا غرو فى ذلك فكثيراً ما يضحى الإنسان بسعادته فى سبيل لذته ، وتسهل عليه هذه التضحية إذا تعودها . إن طريق اللذة مفروش بالدمقس والحرير بحيث يستطيع السير عليه من ولد حافى القدمين كما يسير على العشب الناعم . أما السعادة فقد خلقت للصالحين من البشر ، إما لأنهم يعتقدون بأنهم سعداء ، أو لأنهم ينتظرون السعادة مطمئنين إلى نوالها .

فالسعادة مطمح النفوس الكبيرة ، وكل نفس شريفة إذا